العقلي واللعقلي في مناهج العلوم : بول فيرابند

إشكالات في مسيرة العلم  
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم العلوم الإنسانية

شعبة الفلسفة

الأستاذ بلعربي محمد

ماستير 1 فلسفة عربية + فلسفة غربية

يُعد الفيلسوف النمساوي وعالم الفيزياء " بول فيرابند' من فلاسفة العلوم الذين تركوا بصماتهم على الفكر الفلسفي العلمي ، بما خلفه

من آثار مثيرة للجدل فيما يخص مناهج العلوم ، فهو يعتبر، في مواقفه، مبتكرا،وأحيانا يبدو غامضا جامعا في منهجه بين العقل و اللعقل. أو بين المنهج و اللمنهج.

ولد بول فيرابند في فينا بالنمسا عام 1924 وتوفي بسوسرا سنة 1994. عرفت أفكاره بالفوضوية إذا أمر أن يكون هناك نسق علمي ثابت ونهائي . وقد وضح آراءه في كتابه " ضد الأسلوب ( المنهج) الذي نشره في 1975 ، ويعتبر من كتبه الأكثر شهرة ببن الفلاسفة وبين العديد من العلماء المعاني بالفكر الفلسفي.

اشتهر بول فيرابند بعمله كأستاذ الفلسفة في جامعة كاليفورنيا (بيركلي)  حيث عمل بين 1958 و1989. تنقل بين الولايات المتحدة و ألمانيا وايطاليا وسويسرا. اتهمه معارضوه باللاعقلانية ووصفوه بأنه " أسوأ عدو للعلم" وبأنه شخصية متناقضة، معقد، غير منتظم. وكان في نظر آخرين أحد أكثر الشخصيات الموهوبة في الفلسفة الأكاديمية . اهتم بالمسرح ، وكتابة المسرحيات متأثرا بالكاتب الماركسي " برونولت بريشت" كما اهتم بعلم الاجتماع و الفيزياء والفلسفة. تتلمذ ل" فيتجنتشتاين وكارل بوبر الذي أشرف عليه في لندن 1952  
قام بترجمة بعض أعمال جمعية كارل بوبر المفتوحة إلى اللغة الألمانية، وقدم تقريرا عن تطور العلوم الإنسانية في النمسا. في عام 1955حصل على أول تعيين أكاديمي في جامعة بريستول، وألقى عدة محاضرات في فلسفة العلوم وعمل أستاذا في بيركلي ، أوكلاند، كاسل، لندن،وبرلين مطورا في هذه الفترة نظريته النقدية العلم حيث يصفها بالفوضوية حتى يبرر رفضه للاستخدام الصارم لقوانين العلم وقواعده التي لا يعتبرها نهائية ثابتة.  
تأثر بكارل بوبر وأيد أهم أفكاره المتعلقة بمنطق تحول العلوم، إذا رفض الثقة المطلقة في العلم واعتبر أن النظرية العلمية قابلة للضحد والتكذيب . من أبرز مؤلفاته :  ضد المنهج 1979 . " العلم في المجتمع الحر"  " أوراق فلسفية" 1981. " وداعا أيها العقل" 1987 . تأثر فيرابند في شبابه بالنزعة الوضعية و شارك في برنامج " دائرة كرافت" واعتنق الابستيمولوجيا التفنيدية البوبرية ( كارل بوبر) بعد تعرفه على كارل بوبر ودافع عنها ردحا من الزمن ضد النزعة الاختيارية الاستقرائية ، بل ترجم كتاب بوبر " المجتمع المفتوح وأعداؤه" لكن سرعان ما تنكر له وخالفه فكتب مقاله المشهور :" ضد المنهج" ، واتفق مع صديقه " ايميري لاكاتوس" على تأليف كتاب مشترك عنوانه " مع المنهج وضد المنهج" حيث يكتب لاكاتوس فصولا يدافع فيها عن العقلانية، ويكتب فيرابند فصولا يفند فيها ويهاجم العقلانية. لكن رحيل لاكاتوس المفاجئ عام 1974  حال دون إتمام هذا المشروع فلجأ فيرابند إلى نشر ما كتبه عام 1975 فكان بذلك كتابه الذي يحمل عنوان " ضد المنهج" حيث نشر خطة لنظرية فوضوية في المعرفة، ومنه تفرغ لنقد البوبرية ( كارل بوبر) ذات النفوذ الواسع في الحقل الابستيمولوجي .

نُشرت لبول فيرابند نصوص أخرى لا تخلو من قيمة عند قرائه و دارسيه ونذكر منها: " العلم في المجتمع المفتوح" 1978, و " أوراق فلسفية" في ثلاجة أجزاء 1981 ، نُشر الجزء الأول منها قبل هذا التاريخ باللغة الألمانية ، " العلم من حيث هو فن" 1984, " وداعا العقل" 1987 " ثلاث محاورات" في المعرفة" 1991. " طغيان العلم" 1996 بالإيطالية، وترجم إلى الانجليزية في 2001.  " قتل الوقت" 1995 وهو سيرة ذاتية autaubiographie كتبها قبل وفاته سنة 1994.

إن بول فيرابند ، في تناوله النقدي للعقلانية قام بنقد يمكن وصفه بالتاريخ الجينالوجي لهذا المفهوم، وأكد على انتمائه الى العهد اليوناني وخاصة مع إكسانوفان و أفلاكون و أرسطو. إلا أن موقف فيرابند ورفضه العقلي le rationnel  لا يعني أنه يتبنى اللعقلي l, irrationnel  بل هو يرى أن العقلي واللاعقلي ملتبسان ويوجدان معا..وهذا الالتباس بينهما هو ما جعله يتحدث أحيانا عن نوع من المناهج اللاعقلية معتقدا أنها تؤدي أحيانا إلى نجاح ملحوظ لا بالمعنى العقلي ولكن بالمعنى اللاعقلي ، وليس من شك في أن المثير، في موقف فيرابند من العقلي واللاعقلي هو أنه يحاول الجمع بينهما ، والتوحيظ بين العقل واللاعقل حيث يشير إلى انه من العبث ان نأمل في اختصار العلم إلى مجموعة من القواعد والقوانين..المنهجية البسيطة وذلك نظرا لتعقد تاريخه ، فالخاصية الأساسية للعقلية العلمية هي التعدد والتنوع. يقول فيرابند : " إن تنوع الآراء سنة ضرورية للمعرفة الموضوعية، والمنهج الذي يشجع التنوع هو ذلك المنهج الوحيد الذي يساير النظرة الإنسانية " ينظر : د. حسن الحريري : فيرابند بين الفوضوية والنسبوية .04. 06. 2015.